# مناقشات

## « تغيير الانسان العربي » وبيان ٥ حزيران

بقلم : خالد الخشان

***

ضمن مجتمع كمجتمعنا العربي ، تتصارع فيه الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة ، وتتصادم الاراء فيسمع لها ارتطام ، وتتطاحن المتناقضات ، لا يمكن أن تكون ثمة نظرة واحدة للحياة والمجتمع ، أو فهم موحد للظاهرات الاجتماعية المختلفة ... لا بد أن يكون هناك تباين في الفهم وفي النظرة طبقا لاختلاف المواقع التي يحتلها الفرد أو الطبقة أو الفئة المعينة من المجتمع والحياة . ومن هنا فلا بد أن تكون هناك حقيقة موضوعية واحدة لظاهرة واحدة ، وان وجدت ( حقيقتان ) فواحدة منهما هي المزيفة واللاحقيقية .

ونحن حينما نحاول البحث عن الحقيقة ، فعلينا أن نؤمن بالقيم الاخلاقية الانسانية ونلتزمها ، كأن نحترم الاراء ، وأن نخلص للعمل الذي نؤديه ، ان نخلص للحقيقة ، وان لا نتغاضى أو نتغافل عما يمكن ان نكتشفه خلال سيرة البحث عنها . أن لا نتعمد طمس آثارها الباصمة في لوحة الرؤيا وفي الجوهر .

وانطلاقا من هذا المبدأ ، وددت أن أفتح مع الاستاذ أدونيس حوارا علميا هادئا حول « بيانه » المنشور في الاداب « العدد الممتاز » . وأدونيس في مقاله هذا يحاول ان « يعيد النظر في الانسان العربي ، قبل اعادة النظر في الحياة العربية » ، أن يضع يده بصدق على موطن الداء ، يحاول أن يبحث عن الحقيقة كمثقف عربي يعيش مجتمعه الانساني بتناقضاته ، بصراعه . لهذا نراه آنا مهزوزا تتلاقفه تيارات القلق المضبب ، بعيدا عن الحقيقة ، وآنا واثقا يضع اصبعا عليها ، فيشير ويشخص ...

انه يبدأ بكومة من الاسئلة التي تشغله ، وهو هنا يتحدث بهوية الانسان العربي العائش اليوم .. فيتساءل : من آنا ؟ هل أعرف نفسي ؟ ثم يتهم الانسان العربي من خلال الاسئلة بأنه لا يعرف أن كانت السيارة التي يستخدمها هي سيارة حقا أم فرسا من حديد ؟! والطيارة التي يقودها ان كانت طيارة فعلا ام شيئا غريبا ، نصفه طير ونصفه بشر ؟! والمصابيح الكهربائية ان كانت هي كذلك أم شموعا من زجاج ، ومصابيح تشتعل بلا زيت ؟! فالانسان العربي ، كما يراه أدونيس ، لم يستوعب من عصره شيئا ، لا يدرك التغييرات التي طرأت على عصره وعلى الحياة . انه يفهم الاكتشافات العلمية الجديدة أشكالا بدائية كان يراها الاسلاف . وما دام يستخدمها فلعله يستخدم الشكل دون فهم الجوهر ، دون فهم للمحتوى ... ! هكذا انساننا العربي المعاصر آذن .

لا شك ان فهما كهذا ينفي حقيقة ان الاكتشافات والاختراعات العلمية الحديثة طورت من تفكير الانسان ومنحته أسلوبا عصريا جديدا في نظرته للحياة . انها عمقت لدى الانسان نظرته الى العالم ، ووسعت رؤياه للاشياء وللحياة ، فلا يمكن له الا أن يتأثر بهذه التحولات الجديدة في العصر ، لا يملك الا آن يتأثر ... يتغير . صحيح أن هنالك تطورا في اكتشافات العلم ، يقابله تخلف في الادراك الاجتماعي ، وهذا بلا شك يولد لدى الانسان العربي شعورا بالغربة ، ولكن الغربة ضرورية لتطوره ، على أن يخضعها ابدا ، ينقلب عليها كما يقول فيشتر.

وبعد ، فالانسان ابن تاريخه وعصره ، انه يتغير في مرحلة تاريخية وحالة زمنية معينة ، عن مرحلة تاريخية وحالة زمنية سبقتها أو تليها . وهنا أطرح سؤالا : ـ هل يكون انساننا العربي متخلفا عن مسايرة الحياة وعن فهمها ؟ وان كان كذلك ، فما هو السبب ؟

ان الاستاذ أدونيس يصل الى الصواب في هذه النقطة ، حين يتساءل « أين مجال تأثيري وفعلي وأية سلطة لي ؟ » . السبب اذن يكمن في انعدام مجال التأثير والفعل لدى الانسان العربي ، وفي انعدام السلطة التي تمثله . فالافكار التي يحملها أيما انسان لا يمكن أن تكون منعزلة عن واقعه وعن حياته . حدث ذلك مرة واحدة فقط ، ولكن في أسطورة أهل الكهف لا غير !! ولا شك أن هنالك تأثيرا متبادلا بين الانسان والحياة ، غير ان هذا التأثير يظل عفويا ، غير فعال ، حين لا تكون ثمة نظرة صحيحة عن الحياة ، حين لا يكون ثمة نظام علمي في فهم الاحداث والظواهر . هذا النظام العلمي هو الذي يمنحه مفهوما متجددا عن الحياة فيتيح له ـ للانسان ـ ان يفسر الاسباب لكل ظاهرة ، بل يلزمه في معرفة مكانه منها ، ودوره فيها ، ليستطيع بالتالي التأثير الفعال بها .

فالقضية اذن ليست تخلفا في ذات الانسان العربي كانسان ، بل في جملة الانظمة التي سيرت وتسير المجتمع العربي نحو التخلف . انها في مجموع المفاهيم الرجعية التي غرزتها وتغرزها قوى الرجعية والردة في جسد الانسان العربي . انها في مجموعة التقاليد القشيبة التي غرستها في أرضه العهود المظلمة ، وعهود الاحتلال والانتداب العثمانية والاستعمارية . كل هذه وغيرها وقفت معوقة في وجه الانسان العربي وساهمت في تخلفه . والتخلف ليس طبيعة ملازمة لحياة الانسان العربي ، لانه فعال ومتطور ، ومتغير . انه ليس قاصرا عن فهم الحياة اذا ما أتيح له سبيل لفهمها ، اذا ما سلح بنظرة علمية صائبة ... اذا امتلك مصيره . والانسان العربي دافع عن الفكر ولكن ليس عن كل فكر ـ كما يريد منه الاستاذ ادونيس ـ انه يدافع عن الفكر الذي يمنحه الحقيقة ، الحقيقة الموضوعية ، لا الحقيقة المزيفة . انه اضطهد وسجن واستشهد من أجل الفكر . والاحداث في الوطن العربي ، بكل عهوده ، شهدت بذلك . وليسمح لي الاستاذ أدونيس أن أعرض له حقيقة صغيرة ، واحدة فقط ، أهديها له شاهدا على موقف الانسان العربي مناضلا ومدافعا عن الفكر . فبعد احداث شباط ٦٣ دخل السجون أكثر من سبعين ألف مواطن عراقي بشتى انتماءاتهم الفكرية ... ولكن هل تسنى للاستاذ ادونيس ان يعرف أن هؤلاء المواطنين ، كان من الاكيد أن لا يظل واحد منهم في السجن على الاطلاق لو وافقوا حينئذ على التخلي عن أفكارهم التي يؤمنون بها ؟ هذه حقيقة ونموذج ... فالانسان العربي يدافع ، ويضطهد ، ويسجن ، ويستشهد ، من أجل الفكر الذي يؤمن به . ثمة موقفان متناقضان من الحقيقة والحرية ، وفي هذين الموقفين يتجلى الصراع ويحتدم . فينبغي أن لا يخيفنا التناقض ـ الصراع في الفكر . ينبغي أن لا نرى في التناقض ـ الصراع تمزقا في الرأي ، فلا وجود للحياة بدون التناقض ـ الصراع . والصراع في الفكر جزء لا يمكن عزله عن الصراع الطبقي في مجتمعنا . لا يمكن للحياة أن تتطور بدون الصراع ، بدون التناقضات ، هذا قانون ، اذن فلا بد للانسان العربي أن يقف متحيزا من الحقيقة والحرية ليدين ، وليرفض الموقف المتحيز الاخر منهما . وكما اننا لا نستطيع أن نعزل الصراع في الفكر عن الصراع الثوري العام ، كذلك لا يمكن فصل الانسان عن الحياة التي يعيشها . ان هنالك ترابطا ماديا بينهما . ولا يتضح من مقال أدونيس انه يلاحظ ذلك بجلاء ، فانه يرى أن المسألة ليست « أن تتغير الحياة العربية ، أي المجتمع العربي ومؤسساته ، بقدر ما هي أن يتغير الانسان العربي » . فهو هنا يفصل بين الانسان العربي ، وبين الحياة العربية ، وهذا محال . ان تأثيرا متبادلا هو غير الانسان الذي يتأمل فيغير . أن نساهم بتغيير الواقع الذي يعيشه الانسان معنى ذلك أن نغير الانسان نحو الافضل ، ونحو الارفع .

## « المحتوى والشكل ، المظهر والجوهر »

ثم ينتقل أدونيس الى نقطة هامة وحيوية حين يقر ان الانسان قد تغير ! ولكنه تغير من خارج « ولم يتغير من داخل » . تغير انساننا واستعاض « بالكم عن الكيف وبالشكل عن الجوهر » و « شخصيته من داخل ما تزال كما كانت منذ خمسة عشر قرنا » و « أن العربي المعاصر يحيا في كيانين ، ذاته المعرقة في السلفية « الجوهر » وحياته المتهالكة على أشكال المدنية الحديثة » و « انه يتبنى التقدم نظريا «الشكل» » ... وما الى ذلك ... ومن جديد يخطىء أدونيس حين يفصل بين الشكل ـ المظهر ـ الخارج ، وبين المحتوى ـ الجوهر ـ الداخل . فاذا كان هنالك شكل ـ مظهر ، فلا بد أن يكون لمحتوى ـ جوهر . والجوهر محتوى لشكل ـ مظهر . ( فالظاهرات مظهر الجوهر ، الشكل الخارجي لتجليه ) . ولا يمكن أن تكون أية مسافة زمنية أو اجتماعية ما بين المظهر وبين الجوهر لشيء واحد . انهما متلاحمان كل منهما يدل على الاخر . المظهر ما يمكن أدراكه بالحواس مباشرة أما الجوهر فان أكتشافه يحتاج الى عمل انساني معقد ، الى جهد ونشاط مركبين . هذا ما فات الاستاذ أدونيس . أذن فما دام يؤمن ويقر ان مظهر ـ خارج الانسان العربي قد تغير وتطور ، فلا بد ـ موضوعيا ـ أن يكون جوهره ـ داخله ـ قد تغير وتطور أيضا .

## « الانسان العربي الثوري »

ويتصاعد الاستاذ أدونيس في مقاله الى صعيد الانسان العربي كثوري ومناضل ، ولا نريد هنا أن نناقش معه مفهومه عن الثورية كمفهوم علمي ، فلدينا عدة مسائل وقضايا ومفاهيم متفرعة تجدر مناقشتها كمفهوم الوطن الخائن او الشعب الخائن ! مع ما في هذا من نقض لمنطق الحياة والتاريخ ، ونفي كل الجهد الانساني الطويل والشاق . فالشعب والوطن لا يخونان ، أما الذي يخون فهو الفرد والفئة ، والحزب ، ويبقى الشعب على مر العصور هو الصادق والمؤمن ، وهو النزيه . والعلة من جديد هي ليست في الشعب والوطن ، بل في الذين يضلون بغفلة من الزمن والتاريخ الى منبر السلطة قادة سياسيين وفكريين .

يقول أدونيس ( ان الانسان العربي الثوري يخسر الواقع ، فيما يزداد تشبثا بالنظرية ... يهمل الانسان ، ويتشبث بالعقيدة ) اذن فهذا الانسان العربي الثوري ، حسب ما يفهمه أدونيس ، يتشبث بالنظرية ويلفظ التطبيق ، ينتحي جانبا عنه ، أي انه لا يؤمن به . ولعمري ، فانه ليس ثوريا أبدا ـ ولا ينطبق عليه مفهوم الثوري ـ من يفصل النظرية عن التطبيق . فأدونيس هنا اذن لا يتحدث عن الانسان العربي الثوري الواعي لمصالحه ، بل عن شيء أخر ، شيء غريب !! انه يتحدث عن انسان الذهنية البورجوازية الذي فقد مقومات مستقبله منذ خسرت البورجوازية العربية ثقة الجماهير بها . أن يتحدث عن الانسان « الثوري » الذي لا يتسلح بنظرية ثورية ، فيتخبط دون تخطيط ، ويبحر دون أشرعة بزوارق من ورق يفسر دون أسس علمية أو حضارية او تاريخية ، فهو بالتالي لا يصل الى نتيجة سوى المتاهات الظلامية والمعميات المبهمة في الرؤيا وفي التصور . فهذا الانسان المثقف البورجوازي الذهنية ( يحتقر المواطن ويمجد المرتزق ) يحوم حول الكلمات ويقع بالتالي في فراغ مفجع مميت ... الثوري الحقيقي هو الذي يزاوج النظرية بالتطبيق ، فهما مترابطان متلازمان . والسؤال هو : هل أتحنا لانساننا العربي أن يفهم ذلك ؟ الى أي مدى كان الدور الذي لعبه المثقف العربي من أجل بث هذه المفاهيم لتوعيته ؟ ثم هل حاولنا تحويل الانسان العربي المتخلف الذي يؤمن بالميتافيزيق ، الى انسان يؤمن بالعلم ، وبالنظرية العلمية الحقيقية ؟! هل غرزنا فيه المفاهيم التي تمجد العمل ، لكونه هو الذي خلق الانسان وهو الذي يغيره ويطوره ؟

## « الانسان العربي المفكر »

وكما تصاعد أدونيس من الانسان العربي الى الانسان العربي الثوري ، فهو الان يتصاعد الى الانسان العربي المفكر ، شاعرا ورساما وموسيقيا وفيلسوفا وكاتبا ومربيا ، وهنا لا نملك الا أن نتفق مع أدونيس الى حد ما في مناقشته لهذه القضية . انها تمثل عين الصواب رغم تناقضها جوهريا مع ما حاول استحلاصه آنفا . يقول أدونيس ، أن المفكر العربي « جعل من أجيالنا آلات استذلها لنير التقليد الرجعي أو لنير التقليد الغربي وساعد بالصمت أو بالكلام على ان يكون الشعب وثرواته وتراثه في خدمة الحاكم ونظامه » . ولكن لنتساءل عن ماهية الافكار السائدة في مجتمعنا العربي ... عن الحقيقة الموسمية المنافقة المفروضة بسياط الطبقات المستغلة عبر كل العصور التي مر بها مجتمعنا العربي ، بل عن جوهر المجتمع العربي. لقد قلنا انه لا يمكن فصل الافكار السائدة عن المجتمع الذي تسود فيه هذه الافكار . لا يمكن أن يوجد فكر رجعي دون رجعية ، ولا ان يوجد فكر بورجوازي دون بورجوازية ، وكذلك لا يوجد فكر بروليتاري خلاق دون بروليتاريا . فالمثقف العربي ما هو الا وريث تلك الافكار التي غذتها الطبقات التي سادت في مجتمعنا العربي ، وما هو الا داعية من دعاة « الحقيقة المنافقة » التي روجها مستغلو المجتمع ... ولكن هل هذا كل شيء ؟ هل يحق لنا أن ندين المثقف العربي عموما ؟ ألم ينبثق فكر تقدمي سعى من أجل حقيقة حقيقية ، غير مزيفة ، ولا منافقة ؟ وهل وقف انساننا العربي المعاصر ، انساننا المضطهد ، موقف السلب والرفض من الافكار الجديدة ؟! ألم ينبثق للطبقة العاملة فكرها الجديد ؟! اذن يجب أن نحدد بالضبط من هو المفكر العربي المعني هنا ... ثمة مفكرون كانوا وما زالوا أبواقا متحمسة للحاكم ونظامه . أما كانت هذه الابواق المتحمسة ـ مؤمنة حقا بهذا الحكم وبهذا النظام ؟ أما كان هناك مفكرون يعارضون هذا الحاكم وهذا النظام ؟ هل صمت الفكر العربي التقدمي أمام الاضطهاد ، أمام العسف ، أمام القهر بشتى أشكاله ؟ لا شك ان هنالك تقصيرا ما ( بالصمت ) ، ولكن هذا التقصير ( بالصمت ) لا يعني انه خيانة أو تواطؤ مسبق ، تواطؤ اصراري .

أما الذين يجعلون من ( الحزب أعلى من الوطن والشعب . والعقيدة أسمى من الحقيقة والانسان ) فما هم الا مثاليون مساكين ، مثاليون من طراز كلاسيكي عقيم . انهم يفهمون الغاية على أنها وسيلة ، والوسيلة على انها غاية ، الحزب ليس أعلى من الشعب . الحزب هو وسيلة ، وسعادة الشعب هي الغاية . العقيدة وسيلة ، والحقيقة هي الغاية ، هي الهدف ، ومحاولة عقيمة حقا تلك التي تعتبر الوسيلة أعلى وأسمى من الغاية . وبعد فيودنا أن نؤكد هنا انه يجب التفريق بين الفكر التقدمي المعاصر ـ الذي لم يستسلم لعصا الحاكم ، ولم يتواطأ على الحقيقة والفكر والحرية ، ولم يشارك في التواطؤ ، ولم يتقاض ، الفكر التقدمي الذي تمرد على الطغاة وانتصر للمضطهدين والمظلومين ـ وبين الفكر الرجعي ـ الذي استسلم وتواطأ .. وساهم في التواطؤ ... وتقاضى ـ .

ان الانتقاد الذاتي والاعتراف بالخطأ ، سمتان أخلاقيتان تتميزان بالجرأة وبالجدية . وأدونيس عندما ينتقد الفكر العربي المعاصر ، فهو يقر بأنه جزء منه ، وهو يدينه . ولكن بم يدينه ؟! انه يدين الفكر العربي المعاصر بالعجز والجهل ... يدينه بالتبعية والانسحاق ، فان هنالك مفكرين لا يتجاسرون على الجهر بايمانهم وبالحقيقة ، لا يعترفون بأخطائهم ولا يغيرون أفكارهم التي أثبتت التجربة بطلانها ... انهم ( يدعمون الطاغية الذي يضطهد مفكرين اخرين ) ف ( المصلحة عندهم قبل الحقيقة ، والسلام قبل الحرية ) . وهذا ما لا يتجاهله اي باحث صادق . أما بخصوص اتهامه للفكر عموما بأنه عاجز وجاهل ، تابع ومسحوق ، فأنا لا أود هنا أن أتهم أدونيس بالتطرف أكثر مما وددت اتهامه بالسوداوية والعتمة الغالبة في رؤياه ، وهذا حسب كل انسان

مثقف يمتلكه الانفعال والعاطفية بعد كل نكبة ، أو نكسة . فهل صحيح ان الفكر العربي المعاصر عاجز وجاهل ؟ وهل هو تابع ومسحوق ؟ عمن هو عاجز ؟ وماذا يجهل ؟ لمن هو تابع ؟ ومن سحقه ؟ الفكر العربي قاصر عن اداء كل مهامه الوطنية والقومية والانسانية، وليس عاجزا أبدا عن ادائها ... انه مقيد بسلاسل الحقائق الرسمية ، بالتهديد السلطوي ، بالترهيب ، وليس جاهلا أبدا . انه ملتزم (بغض النظر عن طبيعة وشكل الالتزام) وليس تابعا .. وبعد فانه مهدد بالانسحاق وليس مسحوقا أبدا . لا يمكن للفكر العربي المعاصر أبدا أن يعجز ، أن يجهل أن يكون تابعا ، أن ينسحق . ولكن لنتساءل : من الذي يسد على الفكر آفاق الاطلاع والفهم ، فيحاربه ليجعله قاصرا ؟ ومن الذي يقيد الفكر ، فيسلب منه الجرأة والمبادرة الخلاقة للتطور ؟ بل أي نوع من الفكر هو المقيد في مجتمعنا العربي اليوم ؟ هل هو الفكر الرجعي السائد الذي يشكل جزءا فعالا من النظام الرجعي ، أم الفكر التقدمي الذي يدعو الى قلب الانظمة الرجعية والافكار الرجعية العقيمة ، الى تحويل المجتمع العربي تحويلا كيفيا ، ثوريا ؟

ومن ثم فالفكر يلتزم قضية وموقفا ، الفكر لا بد أن ينتمي الى طبقة يؤمن بها ويدافع عن وجودها الذي هو وجوده ، وهو انطلاقا من موقفه وانتمائه الى طبقة ، الى فئة ، فلا بد ان يرى موقفه عادلا ، فيدحض الفكر المناهض له . اذن ، قضية من هي العادلة ؟ هل ثمة ( شيء ) يمكن ان يحتكم اليه هذان الموقفان أو القضيتان المتناقضتان ؟ نعم انه الواقع ، والتجربة والحياة . والفكر ـ الموقف الذي يؤمن بالجديد ويؤمن بالطبقة الجديدة هو الذي ينتصر بالتالي . والفكر ـ الموقف الذي يؤمن بالقديم وبالطبقة الزائلة هو المنسحق وهو الزائل .

والخلاصة ، ان الطبقة القديمة تنظر الى الفكر الجديد ، فكر الطبقة الجديدة ، نظرتها الى مناضل يهدد وجودها وبقاءها ، لذلك فهي تضطهد الانسان المناضل والفكر المناضل على السواء . وكما تحاول سحق المناضل تحاول أيضا سحق الفكر المناضل أيضا .

## (( والانسان العربي السياسي ))

ان أول منطلق للتوصل الى حقيقة ، أية حقيقة ، هو الصراحة الجريئة . ونحن عندما نتحدث عن وضع ما أو حدث ، فالاجدر بنا أن نسمي الاشياء بمسمياتها الحقيقية المباشرة ، وأدونيس من خلال عرضه للقضية ، فانه لا يناقش الانسان العربي السياسي فعلا ، بل القائد السياسي الذي يعتمد أول ما يعتمد جهازا قمعيا لفرض سيطرته وهيبته . ومجتمعنا العربي حافل بخليط عجيب من أنظمة الحكم المتباينة ، وكل نظام منها ، له نظرته الخاصة للانسان والفكر . فهنالك حكم الاحتلال الكولونيالي المباشر بواسطة القوات العسكرية ، وهنالك الحكم العميل الذي يدين للامبريالية بوجوده ، وهنالك ايضا الحكم العسكري الرجعي الذي يضطهد الجماهير ويؤمن بسياسة العصا والتأديب معها . ومن ثم ، حكم الديمقراطية الليبرالية الغربية ، والحكم البورجوازي المذبذب ، وأخيرا فهنالك الحكم التقدمي الثوري الذي لم تتحدد له النظرية الثورية العلمية المتكاملة . فالتحدث عن القائد السياسي الممثل لجهة سياسية أو نظام سياسي ، يكون عبثا ، حين لا نميز بين هذه الانظمة المختلفة كمدافعة وملتزمة بمواقف مختلفة حول أسلوب الحكم وجوهره وعلاقته بالشعب . بهذا التمييز فقط ، يمكننا استشفاف نظرة صائبة لمجرى نضالنا والقاء المسؤولية وقدرها المتناسب مع موقف الحكم وجوهره . ان موقف حكم ما من الشعب متطابق مع موقفه من الفكر . الحكم الذي لا يؤمن بالشعب لا يؤمن بالتالي بحق الانسان في ان يفكر او في أن يمارس السياسة . ولكن أي من الانظمة تلك التي بذرت ( ثروات تكفي لان تمحو من البلاد العربية ، الامية والمرض ، وتفتح الطرق الحديثة، وتؤسس الجامعات والمعاهد التقنية ، وتنشىء مشاريع الانتاج والعمل والتصنيع ، وتجعل من كل قرية نواة تقدم ، ومن كل بيت حصنا علميا ) ؟.. اذا استطعنا أن نشخص هذا ، فما علينا الا العمل الفعال لتوجيه غضب الجماهير المقدس على أنظمة كهذا النظام ، ما علينا الا أن نعمل من أجل توعية الجماهير وتشجيعها لامتلاك مصيرها بيدها .

( لقد تحالف رجل السياسة مع رجل المال لابادة الفكر ) . ان أدونيس يثور بوجه هذا الواقع ، انه يرفض أن يتحول المفكر الى موظف ، وأن يعيش تحت رحمة رجل السياسة والمال ، وأن يتنازل عن دوره في البحث عن الحقيقة ... أو أن يتغاضى عن الظلم ، أو أن يتنازل عن الحرية . ان هذا الواقع الذي يرفضه أدونيس ما هو الا واقعنا الاجتماعي المعاش في وطننا العربي . والفكر على مر المراحل التاريخية كان وما يزال جزءا من الواقع الاجتماعي وهو ايضا جزء من السياسة ، بل تابع لها ، ولكنه مؤثر فعال وايجابي عليها . انه أداة للصراع الطبقي ، ذلك ان كل طبقة تجند فكرها لخدمة سياستها . فالفكر جزء من سياسة والسياسة وسيلة لغاية ، والمجتمع الذي يتسم بالتمزق والتفتت ، يكون فكره متمزقا متفتتا أيضا . من هنا تأتت الحاجة الانسانية الى فكر ثوري يرفض هذا الواقع السياسي ، ويدعو الى سياسة ثورية ترفع من وجود الانسان العربي ... سياسة تؤمن بالانسان وتسعى لتحقيق غاية الانسان . ان رفض أدونيس لهذا الواقع تجعله يدعو المفكر العربي أن ( يقوم بثورة تعيد للفكر دوره وللمفكر مكانته ومهمته ، فتقلب الاسس التي تقوم عليها الحياة العربية اليوم ) . هكذا اذن القضية ، قلب الاسس التي تقوم عليها الحياة العربية ، رفض الواقع الذي يضطهد والذي يتحالف فيه رجل السياسة مع رجل المال لابادة الفكر ، وخلق مجتمع ثوري يقلب المفاهيم الرجعية التي تدعو الى غربة الانسان والى تمزقه الفكري والى العدمية والهروبية .

ان أدونيس يدعو المفكر العربي أن يقف بروح الرجولة والحقيقة ، فلا يترك للسياسة أن تصبح الكل ، أن يجعل من السياسة وسيلة لا غاية ، السياسة المخططة بنظرية علمية ، بفكر ( نقي متجوهر في أتون الالتزام بقضية الانسان ) . وهنا لا بد من الوقوف مع هذه الدعوة، ولكن هذا الى الان لا يزال جزءا من القضية ، قضية الفكر ومهمته .. فكيف نستخدم الظروف الزمنية ليكون عملها في صالح قضيتنا ؟

## الامارات الثلاث

ثم يحدد ادونيس امارات ثلاثا ( تشهد لتغيير الانسان العربي ، الحرية ، الخلق ـ الفعل ، خرق العادة ) ... ( فهو لا يتغير بقدر ما يعانيها ويحياها ويمارسها ويسلك بمقتضاها ) .

١ ـ ويدعو المفكر العربي الى أن يسترد حريته التي سلبتها السياسة ، سياسة الطبقة السائدة ، سياسة المصالح الرجعية ، فكيف تنظر الانظمة السائدة الى الحرية ؟ وكيف يسترد المفكر العربي حريته ؟ وهل كانت موجودة لديه ... فسلبت ؟ هل كان المفكر العربي حرا في كل ما يكتب ؟ هل يستطيع ان يكتب ( بحرية ) ما يراه هو ، أم ما يراه النظام السائد ؟! هذه أسئلة مطروحة امام أدونيس وامام المفكر العربي ، وكل منا يمتلك الوقائع ، بل الواقع المجتمعي بالقدر الذي يمكنه من الاجابة عليها ... كل منا لديه من التجارب ما يؤكد له ان النظام السائد لا يمنح الحرية للفكر الذي يناهضه . هذه القضية . النظام السائد ينادي بالحرية ... نعم ! ويدعي انها موجودة ! ولكن أي نوع من الحرية تلك التي يتمثل بها ؟ هل نحن بحاجة ان ننسى ان هناك موقفين متضادين من الحرية ؟ يصل احدهما حد العبودية الذليلة والمسخ وذلك في المجتمعات الرأسمالية والرجعية ، ويرتفع الاخر الى غاية الكون ، غاية الوجود والانسان ، وذلك في المجتمعات الاشتراكية والثورية .

ان الحرية التي ينادي بها أدونيس هي ليست حرية ( الانا ) ، حرية الذات المنعزلة عن الجماعة ، بل ( حرية الاخر الذي يخالفني

وينافضني ) وهذا واقع غير معترف به وغير موجود في حياتنا العربية اليوم ، هناك العديد من الادلة تشير الى انتهاك الحرية بفظاظة ... وكان موقف المفكر العربي من هذا الانتهاك موقفا نسبيا . وأدونيس محق عندما ينتقد المفكر العربي لسكوته على هذا الانتهاك ، هذا الخرق. ينبغي اذن ان نفرق بين من يدافع عن الحرية ومن يهاجمها . بين من يؤمن بها جوهرا انسانيا عظيما وبين من يتشبث بها مظهرا خادعا براقا لجوهر عقيم معتم . فلكي تتحقق الحرية ينبغي أن يكون هنالك فهم لقوانين التطور . ينبغي أن نمزق هذا الطوق الفكري الذي نغلفبه أنفسنا . ونطلع ، نكتشف ، نبدع ، نستوعب مهام عصرنا وسمه عصرنا ، وطابعه وقوانينه . ( الحرية ليست تحررا من القوانين ) ... ( الحرية هي فهم القوانين والاستفادة منها وارغامها على العمل من أجل أهداف معينة ) ... فيجب أن يكون ثمة هدف محدد يتوجه في سبيله المفكر العربي ويسعى من أجله ، يجب أن تكون ثمة سياسة تقدمية ثورية ، بل ينبغي أن يكون هناك فهم واستيعاب لنفسية الانسان العربي الثوري الجديد والجماهير العربية والالتحام بها ، وقد قيل ان الحرية لا تمنح منحا ، بل ننتزع انتزاعا !

وهكذا نعود الى مسؤولية الفكر والتفريق بين الفكر تقدميا وبينه رجعيا لنحدد مسؤوليته ، وعموما فان الفكر التقدمي هو الذي اضطهد لفترات طويلة من تاريخنا ، وهو المضيق عليه . لذلك فلم يكن مقصرا في دفاعه عن الحرية لانها ممنوعة عنه ومحرمة عليه ، فدافع عن كيانه وعنها ، ذلك ان كيانه ملتحم بقضية الدفاع عن الحرية . فلم يكف الفكر العربي التقدمي لحظة عن الدفاع . لم يمر زمن من تاريخنا دون ان يكون هناك اضطهاد للفكر التقدمي . ان اي فكر لا يمكن أن يحجر بالعنف ، ناهيك عن الفكر التقدمي المتطلع . ان الفكر الرجعي هو الذي ساوم على الحرية ، وهو الذي تآمر عليها ، لان هذه المساومة وهذا التآمر يديمان مصالحه وبقاءه ، ولان الحرية تهزمه وتقتله ... فالصراع يهزمه ، ويقتله .

هذا بشأن الامارة الاولى ... الحرية .

أما الامارة الثانية التي هي ( الخلق ـ الفعل ، هي التغيير ) فانها أوضح تحديدا لتماسها المباشر بفاعلية الفكر ... انها أسلوب الممارسة التي ينتهجها المفكر العربي ( ما هو دوره في احداث التغيير العربي وقضاياه وآلامه ؟ ) . ( هل يبقى بعيدا : ينسحب فيسكن في فراغ العزلة ، أم يتعالى فيسكن في فراغ المستقبل . أم انه ينخرط في التاريخ ويقوده ويغيره ؟ ) . هذه أسئلة تلح على المفكر العربي أن يمارس الاجابة عليها ممارسة عملية . كيف يتسنى له أن يساهم في خلق مجتمع عربي على أسس ثورية ؟ هل في أن يتشرنق على ذاته ناشدا قشور الحرية ؟ لكي يكون الاديب حرا ليس معناه ان يتشرنق ، هذه ليست حرية ، انها عبودية بالذات ... انها عزلة عن الانسان والمجتمع . يقول فيشر : « بقدر ما ينعزل الفنانون والكتاب عن المجتمع ، بقدر ما ينصب على الجمهور من التفاهة وسقط المتاع » . اذن فلا دعوى الابداع الفني ، ولا ما يسمى بتحقيق الذات او الشعور بالاغتراب والعدمية ، يخول المفكر او الفنان أن ينعزل عن المجتمع ، ولا يضمن له الابداع ولا الخلق ! ونحن لا ندعو الى التقولب ضمن اطار جامد محدود . ولكن الذي لا بد منه لكي يكون هناك فكر خلاق وصادق ، ومؤد لوظيفته الانسانية ، هو التدخل الفعال لتغيير العالم القديم الذي يعاني منه الفكر والانسان مرارة الخنق والعبودية . فالتشرنق ليس حرية . ولقد عبر أدونيس عن هذه الحرية فشبهها بحرية ( الحصاة المطروحة في استرخاء أبدي ) . اذن يجب أن تكون هناك ثورة على كل التقاليد البالية ، السياسية والفكرية . هنا فقط ، يمكن أن يجد الفكر طريقه الى الخلاص ، ومن هنا يجب أن يبدأ المفكر العربي فيؤدي وظيفته ، كقائد خلاق ... كفاعل ايجابي في حركة التاريخ وخلق العالم الجديد ... وهذا بشأن الامارة الثانية « الخلق ـ الفعل » .

## ٣ ـ « خرق العادة »

أما الامارة الثالثة ... فهي « خرق العادة » ويفردها ادونيس كميزة للمبدع ، للشاعر بشكل أوسع ، فهل ان ادونيس يفزل الشاعر عن مجتمعه وعن العالم ؟ والشاعر من أجل ان يكون لوركا اخر ونيرودا اخر ، وناظم حكمت اخر ، واراغون آخر وايلوار ديفتشنكو ... يجب ان يدخل في المعترك ، يجب ان يخطم ابراجه الخادعة فينخرط في قضية الانسان العربي الكادح ، في اعماق السياسة التي يفهمها رجل الشارع البسيط ، يجب ان يغسل روحه واصابعه من ادران الفكر العقيم، ومن كل الاتجاهات التي أوجدها مجتمع الشعر ـ السلعة، والانسان ـ السلعة ... ولا ريب ان يقول ادونيس « اننا بحاجة الى أن نحارب عالم الجمود والطغيان والاستعمار والاستغلال ، ونفضح وحشيته وحيوانيته وفبحه » ، لا ريب ان يقول ذلك ، ولكن هل نحاربه بالافكار المثالية التي لا تقل خطورة عن هذا العالم الوحشي . هل نحاربه دون ان تتلوث يأقاتنا بغبار النضال الشاق ؟!! وبعد فهل يتحمل الطاغية المستعمر وحده مسؤولية خيانة الشعب العربي ؟ ان الفنان الذي يسكت عن الطاغية في خيانته ليتحمل جزءا كبيرا منها .

وأخيرا يطرح ادونيس فهمه لقضية الشعر وطبيعة الشاعر حيث يدعو الى قتل الشعر الدجلي ، والى أن يكون الشاعر ثائرا في رؤياه وفي واقعه ، ان يكون لا نهائيا ، وان يكون تغيير العالم في أساس حدسه الشعري . أن يسعى للقضاء على الحياة القديمة وبني حياة جديدة ...

ان النقاش حول امارات أدونيس الثلاث هذه ، على ما في جزئياتها ، من مفاهيم لا تخلو من الصحة ، لا يعني ابدا ان الطريق الصائب لتغيير المجتمع العربي والانسان العربي هو ما حدده ادونيس. ولقد حاولت من خلال المناقشة ان اطرح المعالم الجوهرية لطريق تغيير الانسان العربي ... والقضية المطروحة امام كافة المثقفين العرب ، ليؤدوا واجبهم تجاه هذه المسألة الملحة في مثل هذه الظروف التي يمر بها وطننا العربي .

اذن فلتلتحم الكلمة المناضلة مع ارادة الجماهير لخلق عالم عربي ، بلا سجون ، بلا عذاب ، بلا فقر ، بلا عبودية . ومهمة الفنان الاولى هنا هي أن يقوض جدران هذا السجن الكبير فيبني على أنقاضه عالما للمحبة والخير . عالما خاليا من استغلال الانسان لاخيه الانسان .

في الخلاصة أقول ، انه لا يمكن ان يكون هنالك فكر وأدب ثوريان حقيقيان ، دون الايمان بقضية الانسان ، كقضية اعلى واشمل واسمى، كقضية منتصرة ، ودون الايمان بكون الانسان متغيرا ومغيرا ، منفعلا وفاعلا . بهذا الايمان وحسب ، الذي يشمل كافة مفاهيمنا عن الانسان والحياة ، نتمكن من توجيه وتسيير ارادة التغيير نحو التطور والنضج بوتيرة اسرع ، ونساهم في تحويل المجتمع تحويلا ثوريا لصالح قضية الانسان وحريته .

ان فهمنا للواقع وللعصر ، وتشديد نضالنا في المجالين الفكري والاجتماعي ضد الفكر المعوق ، وقيادتنا للصراع الفكري الذي هو انعكاس للصراع الطبقي ، قيادة ثورية ، وتوعية انساننا العربي لكي يتجه في السبيل الذي يرفع وجوده وواقعه ... كل هذه سوف تقرب لحظة التغيير الخلاقة ، لحظة التحول الثوري الظافرة . اننا في هذه المرحلة بالذات بحاجة الى فكر تقدمي يعزز لدى الانسان العربي القدرة على تحمل النكبات والنكسات المؤقتة وتخطيها . بحاجة الى فكر ثوري يعزز الثقة لدى الانسان العربي بنفسه وبحياته، وبامكانياته الجبارة في مواجهة الامبريالية العالمية ، والصهيونية . اننا بحاجة الى فكر يتدخل في الطابع العفوي لحركة الجماهير ، ليجعله طابعا واعيا ، موجها . بحاجة الى فكر يدمر الانتظار السلبي لدى الانسان العربي المعاصر ، فكر فعال بايجابية ، يلفظ القلق واللاجدوى وكل الاوهام البورجوازية العقيمة .

خالد الخشان
البصرة